

بؤني الحكمة من يشاه من يؤن الحكمة فهدأ وتمي
خيرا كبيرا وما يد صكر الا اولو الاباب

المعراج

١٣١٥

بشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولئك الذين هدانا الله وأولئك هم أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام: إن للاسلام صوي و« مناراه » كنار الطريق)

﴿ مصر الجمعة ذى الحجة سنة ١٣٢٣ - ٢٦ يناير (ك) سنة ١٩٠٦ ﴾

تمت سيرة الاستاذ الامام

تابع لما في الجزء الرابع عشر

(مذهبه وطريقته في الاصلاح)

كان تقدمه الله برحمته قد شرع في كتابة تاريخ نفسه كتب في فاتحه
مذهبه في الاصلاح مجلا وشرع بعدها في الفصل الاول وهو في أهله الذين نبت
فيهم وتربي التربية الأولى معهم ولم يتمه (وقد جعلنا جميع ما كتبه من ذلك في
الجزء الاول من تاريخه الذي يطبع الآن) فكلته في تلك الفاتحة هي خير
ما تورده في بيان مذهبه بالاجمال

قال بعد البدء بالبسملة والحمدلة والصلاة والتسليم على خاتم المرسلين « وبعد فما
أنا ممن تكتب سيرته ، ولا ممن ترك للاجيال طريقته ، فاني لم آت لأمتي عملا
بذكر ، ولم يكن لي فيها الى اليوم أثر يوثر ، حتى أكون لأحد منها قدوة ، أو
يكون لأحد في أسوة ، وهذا الذي أجد من استصغار أسري وخفاء أثري ، وظهور

اخفى بعد الثورة العراقية وجعلت الحكومة ان يبدلها عليه عشرة آلاف جنيه وانما
ذلك عبد الله أفندي نديم الذي حكم باعدامه . هذا والثورة العراقية أشهر حوادث
مصر والاساذ الامام من أشهر رجال العصر

عجزني عن بلوغ ما يري اليه فكري ويطمح اليه نظري ، كان يمنعني من اكتب شيئاً يتعلق بحياتي ، تعرض فيه بداياتي وشيء من أعمالها وصفاتي ، حتى أكون به باقياً عند من يطالعه بعد مماتي ، وكنت أقول: وقت أصرفه في حكمة أستفيدها ، خير من زمن أنفقه في قصة أستعيدها ، وما الذي عساه يبقى مني ، وأنا في قومي لم أترك ما يؤثر عني ، »

ذكر بعدها ان بعض معارفه من الغربيين وغيرهم طالبوه بأن يكتب تاريخاً لنفسه وألحوا في ذلك ثم قال

« لما تكرر الطلب في هذه الصور المختلفة رأيت أن الإضراب عن الإجابة اغراق في الخمول ، وتقصير في احترام رأي لم يشبه رياء ، ولم يحمل عليه الا قوة الظن بالفائدة في المطلوب ثم نظرت نظرة في نفسي وما كانت بدايتي ، وما زعت اليه أثناء الطريق في سيرتي ، وما انتهت اليه فيما تأخر من أيام عمري ، وقست جميع ذلك الى ما عليه الناس حولي ، فوجدت اختلافاً قد يسهوعنه الغافل ، ولكن ربما ينتفع بملاحظته العاقل ،

« وجدت اني نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما يدخلون ، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألفون ، واندفعت الى طلب شيء مما لا يعرفون فعثرت على ما لم يكونوا يهترون عليه ، وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت اليه ، وارتفع صوتي بالدعوة الى أمرين عظيمين (الأول) تحرير الفكر من قيود التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه الى منابعها الأولى ، واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبثه ، لتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الانساني ، وأنه على هذا الوجه ، يعد صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً الى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في آداب النفس واصلاح العمل ، وكل هذا أعده أمراً واحداً . وقد خالفت في الدعوة اليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة - طلاب علوم الدين ومن

على شاكثهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم ،
« أما الامر الثاني فهو اصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان
في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على
الكافة منشأ أو مترجما من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس . وكانت
أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجج الذوق وتنكره لغة العرب الخ
(ثم قال) « وهناك أمر آخر كنت من دعائه والناس جميعاً في عى عنه وبعد
عن تعقله ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن
والضعف والنذل الا بخلاؤ مجتمهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق
الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا
الامة المصرية الى معرفة حقها على حاكها وهي هذه الامة التي لم يخطر لها هذا
الخطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرناً - دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم
وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتطلبهم شهواتهم ، وأنه لا يردده
عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته ، الا نصح الامة له بالقول وبالفعل
« جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنقوانه » والظلم قابض على
صولجاناه » ويد الظالم من حديد » والناس كلهم عبيد له أي عبيد *
« نعم انني في كل ذلك لم أكن الامام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير اني
كنت روح الدعوة ، وهي لانزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ولا أبرح أدعو
الى عقيدتي في الدين ، وأطالب باتمام الاصلاح في اللغة - وقد قارب - أما أمر
الحكومة والمحكوم فركته بقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأنني قد
عرفت أنه ثمرة تجنيها الامم من غراس تفرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال ،
فهذا الغراس هو الذي ينبغي ان يعنى به الآن ، والله المستعان ، « اه المراد
وذكر بعده اصابته ونجاحه في بعض الأمور واخفاقه في بعضها
علم من عبارته ان الاصلاح الذي دعا اليه ديني وأدبي وسياسي وأنه ترك
الاخير بعد طول الاختبار ويؤيد ذلك ما يؤثر عنه من القول في ذم السياسة
كقوله: ما دخلت السياسة في عمل الا أفسدته: وقوله في مقالات الاسلام والنصرانية

« فان شئت أن نقول ان السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فانا معك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة ومن معنى السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يُجَنُّ أو يعقل في السياسة ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس »

ترك السياسة التي هي مقاومة الاستبداد والحكم المطلق ومحاولة تفسير شكل حكومة بقوة رعية . وأما السعي في اصلاح حكومة بلاده بإقناع حكامها وأولي الأمر فيها بما فيه خيرها ومصالحها وإرشاد رجال الشورى من الأمة الى طرق السداد في قوانين الحكومة ومسالك الإقناع لما يظهر بالمشاورة أنه الصواب فهو لم يتركه بل كان يصرف فيه أكثر أيام حياته ، وهو ليس من السياسة التي حكم بإفسادها الأعمال ، وإبطالها للأمانى والآمال ،

ترك السياسة خيرها وشرها ، ولكنها — قاتلها الله — لم تتركها من ضررها ، فقد كان يتأجج ربه على فراش الموت برمل الاسكندرية والسياسة تنقب في سواحل بيروت باحثه عنه معتقدة بما أوحى اليها شياطين الجواسيس أنه جاء بيروت متنكراً ليزيل سلطة ابن عثمان ويبدل منها سلطة جديدة لأحد أبناء علي ، وتصدت بشرها الى بعض من قيل لها أنهم من محبيه في تلك البلاد فاتهمهم بالجرائم بل وبالجنایات السياسية وعاقبت بعضهم ولا تزال تعاقب بعضاً وكان أشدهم عقوبة أقوام براءة ، وان أقوامهم تهمة لأظهر براءة من الامام نفسه إذ اتهم بأنه متنكر في بيروت أيام كان يعالج الموت في رمل الاسكندرية . أفلا يكون رضي الله عنه جديراً بالاستعاذة من شيطان السياسة الذي هو شر من شيطان الوسوسة وأشد ضرراً بلى . ولولا معارضة السياسة لعمل الرجل للإسلام في هذه البلاد ما يتناهه الاسلام في جميع البلاد ، على ان السياسة ما قويت عليه نفسه بل كان الله ناصره لنصره دينه فكلمها كادت له تلك الماكرة كيدا رد الله كيدها في نحرها ففتني وقد زادت شهرة الرجل بما كانت تحاول من إخفاء ذكره ، وعرف الناس بعض ما كانوا يجهلون من فضله ، فما أضرت له ولكنها أضرت الأمة بتأخير الإصلاح ولا أقول

بمنعه فإن البذور التي ألقاها قد نبتت فكانت زرعاً أخرج شطأه ولا يلبث أن يستوي على سوقه ويجود بشره فيغيظ المفسدين في الأرض، ويطلق السنة التاريخ بلصن محاولي قلعه إلى يوم المرض هذا ما يتسع له المنار من ذكر مذهبه في الإصلاح مجملاً وموعداً بالتفصيل التاريخ الذي نشتمل بطبعه الآن

﴿ آماله وامانيه ﴾

كان أمله في الإصلاح محصوراً في الأزهر فكان عازماً على توسيع دائرة العلوم والعرفان فيه وعلى إيجاد طوائف من الإخصائين الذين يتقنون علماً واحداً يكونون فيه مرجعاً . وكان يود أن يبدأ بإيجاد طائفة للقضاء الشرعي وطائفة تستعد للدعوة إلى الإسلام ، وأخرى للخطابة ووعظ العوام ، وأهل الأزهر لا يزالون بمنزل عن العالم فهم لا يشعرون بشيء مما وراء جدران الأزهر وبالتيههم كانوا يعرفون حقيقة جميع ما يرون في ذلك المحيط فلا استعداد فيهم لقبول الإصلاح ضعيف ولقاومته قوي إلا أن يكون من جانب السلطة لذلك لجأ الرجل إلى الأمير وطلب إسماعله على إصلاح الأزهر وكان نجاح الإصلاح بقدر ذلك الاسعاد

﴿ مدرسة كلية ﴾

ولما ضعف أمله في الأزهر منذ ثلاث سنين فكر في إنشاء مدرسة كلية في القاهرة تفني عنه في تخريج رجال يخدمون الأمة فاستمال أحمد باشا المنشاوي ونفخ فيه من روحه حتى عزم الرجل على تأسيس المدرسة بحاله وإيقاف أرض واسعة عليها تكفي لتفقاتها ولكن المنية اخترته عند الشروع في الاستعداد بإرشاد الاستاذ الامام . وقد قضت الحوادث بعد موت المنشاوي أن يستقيل من مجلس ادارة الأزهر ويتركه إلى أن يفعل الزمان فيه فعله ، ويهدده لما خبيء في الغيب له ، وعند ذلك قويت العزيمة على إنشاء المدرسة الكلية وبعد التروي وطول التشاور مع أهل الخبرة والاخلاص وضع المشروع للاشتغال بإنشاء الكلية في هذا الشتاء كما قلنا في جزء سابق وإن ما خسرتنا بموت هذا الرجل العامل لم يدع في نفوسنا مكاناً للحسرة على الحرمان من هذا العمل

﴿ جريدة يومية ﴾

وكان في عزمه السعي في انشاء شركة تنشىء جريدة يومية في القاهرة تختار لها طائفة من الكتاب الإخصائين ينفرد بعضهم في بيان ما عليه المصريون في المدن والقرى والمزارع من العادات والتقاليد والاعتقادات وبعضهم في المسائل الاقتصادية والزراعية وبعضهم في الموضوعات العلمية والأدبية. ويوضع لهم قانون لا يتعدونه ومن أحكامه الاقتصار في المسائل السياسية والاخبار الصادقة على ما فيه السيرة والفائدة لأهل البلاد، وعدم المدح والذم الشعري، وقبول الانتقاد على ما ينشر فيها من كل كاتب أديب، ومنها أن يرجع في بيان جميع المصالح ذات البال الى ما يقرره مجلس ادارة الجريدة بالمشاورة فلا يكون ما ينشر فيها عبارة عن رأي رجل واحد ومثالا يتذبذب مع ميله وهواه، ومنها أن لا تكون الجريدة خصما لجريدة أخرى. كنت ممن يلح عليه بهذا السعي منذ سنتين واخترت لهذا العمل من الكتاب المجيدين المعتدلين من رضي بهم وكاشفنا كثيرين من الكبراء والفضلاء في ذلك واخترنا منهم أعضاء لمجلس الادارة ووضعت تقديرا عميديا لانشاء المطبعة ونفقات العمل. ولو بقي الامام حيا لرجونا أن يبرز هذا العمل في هذا الشتاء وان خسارتنا بفقده لا عظم من كل خسارة

(السياحة في الشرق)

كان من نيته الحسنة احسن الله ثوبته - أن يسبح في بلاد الهند وبلاد الفرس وبلاد روسيا الاسلامية ليخبر حال المسلمين بالفعل في الشرق كما اختبرها في الغرب والوسط فيعرف ما يصلح لجميع شعوب المسلمين من التبرية والعمل وما يصلح الآن لبعض دون بعض ولا حاجة الى شرح ما وراء هذا الاختبار لو كان

﴿ تفسير القرآن وتاريخ الاسلام ﴾

كان صاحب هذه المجلة قد اقترح على الاستاذ الامام ان يكتب تفسيراً للقرآن في رمضان سنة ١٣١٥ اي قبل الشروع في انشاء المنار وذلك بعد ان اقترحت عليه قراءة درس في التفسير تردد فيه ثم لم يفعل الا بعد سنتين وشهور. زرته

في يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من الشهر فقرأ لي عبارة من كتاب فرنسي يطن في الاسلام وطلق يرد عليها واحتاج في الرد الى الكلام في تفسير « رب العالمين » فتمنيت حينئذ لو كان للقرآن تفسير على نحو ما كان ينسر فاقترحت ذلك عليه وانني اذكر هنا شيئاً مما كتبه يومئذ في مذكري عن ذلك الاقتراح وهو:

« قلت لو كتبت تفسيراً على هذا النحو تقتصر فيه على حاجة العصر وتترك كل ما هو موجود في كتب التفسير وتبين ما أهملوه . . فأجاب ان الكتب لا تفيد القلوب العمي فان دكان السيد عمرا الخشاب مملوءة بالكتب من جميع الفنون وهي لا تعلم شيئاً منها . . لا تفيد الكتب الا اذا صادفت قلوباً عالمة بوجه الحاجة اليها تسمى في نشرها . اذا وصل كتاب الى أيدي هؤلاء العلماء وفيه غير ما يطلون لا يفتقون المراد منه واذا عقلوا شيئاً منه يردونه ولا يقبلونه واذا قبلوه صرفوه الى ما يوافق علمهم ومشر بهم كما جروا عليه في نصوص الكتاب والسنة التي تريد بيان معناها الصحيح وما تفيد . ان الكلام المسجوع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء لأن نظر المتكلم وحر كاته واشارته ولهجته في الكلام كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه ويمكن السامع أن يسأله عما يخفي عليه منه فاذا كان مكتوباً فن يسأل ؟ ان السامع يفهم من كلامه المتكلم ٨٠ في المئة والقارئ لكلامه يفهم ٢٠ في المئة على ما اراد الكاتب . مع هذا كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الأزهر وبعض طلبة المدارس الأميرية وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما أعلم ، وكان من حقها أن تكتب وما علمت أحدا كتب منها شيئاً خلا تلميذين قبطين من مدرسة الحقوق وكانا يراجعتني في بعض ما يكتبان . وأما المسلمون فلا . . قرأت تفسير سورة العصر في ستة أو سبعة أيام وكان كل درس لا يقل عن ساعتين أو ساعة ونصفاً بينت فيها وجه كون نوع الانسان في خسر الا من استثنى الله تعالى وما المراد بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر الى غير ذلك مما لو جمع لكان رسالة حسنة في تفسير السورة وما علمت أحدا كتب منه شيئاً الا أن يكون عبد العزيز (المتبادر أنه يرد عبد العزيز افندي محمد القاضي في المحاكم الأهلية لهذا العهد وكان يومئذ

تلمينا في مدرسة الحقوق)

« قلت له انه يوجد كثير من المنبين لحال العصر والاسلام في البلاد المتفرقة وكثير منهم انما نهتهم (العروة الوثقى) فأجاب بجواب طويل حاصله ان حال المخاطب يؤثر في نفسه وأنه يعسر أو يتعذر عليه إلقاء الحكمة الى كل أحد .
« قلت ان الزمان لا يخلو من يقدر كلام الاصلاح قدره وان كانوا قليلين فالكتابة تكون بمثابة مرشد لهم في سيرهم وان الكلام الحق وان قل الاخذ به والعارف بشأه لكنه بحسب ناموس الانتخاب الطبيعي لا بد أن يحفظ وينمو بمصادقة الملاءة المناسبة له كما حفظت العروة الوثقى فان أوراقها الأصلية الضميمة قد بليت ولكن ما فيها من المقالات البديعة المثال والفوائد العظيمة حفظت في الطروس والنفوس : ثم أطلنا القول في العروة الوثقى »

« نقلت بعض ما كتبت يومئذ بنصه لما فيه من بيان رأيه رحمه الله وتأثره باستعداد المسلمين في ذلك الوقت . وكنت أذكر له وجوب الكتابة في التفسير كلما سنحت لي الفرصة وكان خلاصه رأيه أنه ينبغي أن يكتب تفسير لبعض القرآن لا لجميعه بأن تفسر الآيات التي قصر المفسرون في بيان حكمها وأسرارها لاسيما ما يتعلق منها بروح الدين من الهداية والتهذيب وأمور الأمم الاجتماعية .

ثم شرع في قراءة التفسير بالأزهر وكان ذلك في غرة المحرم سنة ١٣١٧ وقبل شروعه كتبت مقالة في المؤيد عنوانها (القرآن) بينت فيها وجه حاجة المسلمين الى فهمة والاهتداء به وأن كتب التفسير غير كافية لذلك وان الاستاذ سيقرا التفسير على ذلك الوجه فانتشر الخبر وعلم الناس فأقبلوا على تلك الدروس إقبالا لم يعهد له نظير من المسلمين في هذا العصر تبين به ان الاستعداد للاصلاح ينمو وكان ذلك الدرس أعظم ما خدم به الأزهر والاسلام كما كانت قراءته لأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز أنفع ما خدم به اللغة العربية هناك

عين مفتياً للديار المصرية في الشهر الذي شرع فيه بقراءة التفسير فظننت كما ظن هو أن هذا المنصب ليس فيه عمل يستغرق الوقت وطعمت في وجدانه فرصة يكتب فيها تفسيراً على طريقته في الدرس فلما رأيت الأعمال قد كثرت وفتح

لها من منصب الافتاء أبواب جديدة شرعت في كتابة التفسير على تلك الطريقة كما اقترح علي بعض اهل العلم والفضل. وكنت في البداية لأأكد أن يدعى خلاصة ما يقرره في الدرس الا قليلا اذ لم يكن في نيي تجريد ما يكتب منه في المنار وجعله كتاباً مستقلاً. ثم رأيت من الواجب بسط القول وطبع التفسير على حدته عند سئوح الفرصة ففعلت بإجازته رحمه الله تعالى واستحسانه. فكان المختصر نصف الجزء الأول من سورة البقرة عرضته عليه بعد ذلك فقرأه وزاد فيه ما رأى حاجة الى زيادته ومنه ايضاح الكلام في الملائكة وأجاز باقي ما كتبناه كما هو فكأنه هو الذي كتبه .

رأى رحمه الله تعالى ان هذا التفسير الذي نشره على طريقته التي تلقيناها عنه ونودعه اختياره وفهمه للآي وفقهه في القرآن هو الضالة المنشودة وأنه لا حاجة منه الى أن يكتب هو بيده تفسيراً ولكنه كان عازماً على تأليف كتاب يكون مقدمة لهذا التفسير يبين فيها حاجة البشر الى ما في القرآن من الاصلاح العظيم، والمهدي القويم، على طريقة رسمها، وأعدت لها عدتها، والتي لا أرجو من عناية الله وفضله أن يوقني لوضعها على الوجه الذي فصله لي تفصيلاً، وأن يحقق أمله في هذا العاجز بإقذاره على أعوام التفسير فإنه قد صرح بهذا الأمل وبأمال أخرى من جنسه « وما توفيتني الا بالله عليه توكلت واليه أنيب »

ذلك أمله في التفسير ومقدمته وأما تاريخ الاسلام فقد كان عزم على تأليف كتاب فيه بعد أن أتم تدريس كتاب (دلائل الاعجاز) وكان قد كثرت الاقتراحات عليه في اختيار ما يقرأ بعده في وقته ومنها اقترح السيد علي البيلاوي شيخ الأزهر لذلك العهد (رحمه الله تعالى) أن يقرأ تاريخ الاسلام اذ لا يقدر على ذلك غيره ورأيت نور الله مضجعه يعتذر بأنه لا يوجد عند المسلمين تاريخ ديني فيدرس فعزرت رأيي شيخ الأزهر رجاء أن يكتب هو ما يقرأ فأكان الا أن شرح الله صدره وعزم على أن يكتب فنطبع ما يكتب كراساً بعد آخر وهو يدرسه في الأزهر - التدريس يتبع الطبع والطبع يتبع التأليف. ولكن حال دون ذلك ما كان من الاحداث في مقاومة الاصلاح التي انتهت باستقالته من ادارة الأزهر في إثر استقالة شيخ الأزهر وحرم الاسلام بتلك الفتن « أو الشغب » كأقيل من هذه الخدمة الكبرى التي

يبرز علينا أن نجد عنها عوضاً ولكن ما حصرناه بوفاة الرجل أعظم والأمر لله العلي الكبير تلك أقرب آمال الرجل في خدمة دينه وأمة وأما آمال الأمة فيه فقد كانت عظيمة تتناول المصالح العامة والخاصة فكم من غيور على ملته وبلاده كان في نفسه أن يقوم بأعمال نافعة بإرشاد من فقدنا واسعاذه ، وكم من متعلم ذكي كان يود أن يضع كتباً نافعة بهديه وامداداه ، وكم من عامل كان يرجو الرقي في عمله بجأه وشفاعته ، وكم من عائل كان ينتظر الاستقناء بكرمه ومساعدته ، وقدمات بموته أكثرها تيك الآمال ، وانقطع الرجاء من أكثر تلك الاعمال

وقد أشار الى تلك الآمال في آيات قالها قبل موته اذ كان أشيع خبر موته قبل الوفاة بأيام فبلغه ذلك فجلت نفسه في آماله وامانيه للأمة وآمال الناس فيه فجاش في نفسه الشمر فأنشد

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أم اكتظت عليه المآثم (١)
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه الإمام (٢)
وللناس آمال يرجون نيلها اذا مت ماتت واضمحطت عزائم
فيارب ان قدرت رُجى قربة الى عالم الأرواح وانقض خاتم (٣)
فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا رشيدا يضيء النهج والليل قائم
يمائني نطقاً وعلماً وحكمة ويشبه مني السيف والسيف صارم

(١) أبل المريض شفي من مرضه واكتظت المآثم امتلأت وازدحمت بالناس والمآثم جمع مآثم وهو مجتمع الناس في الحزن وهو في أصل اللفظة عام في الحزن والفرح ثم غلب على جماعتهم في المصائب ثم نسبت هذه الغلبة (٢) قضاء التمام على الدين قد يكون بعد اوتهم للعلوم والفنون أي هي قوام الدول والامم باسم الدين فيكون المشتغلون بها بعداء عن الدين معقدين انه آفة العمران واصحاب التمام عاجزين عن الجمع لهم بين مصالح الدنيا والدين حتى يترك بالمرّة الا من افراد لا تقوم له بهم قائمة (٣) انفضاض الخاتم عبارة عن مفارقة الروح للبدن وهي من اشارات الصوفية

قال هذه الايات مرة واحدة في حال مؤثرة من غير روية ولا تفكر وكتبها عنه أخوه حموده بك ومصطفى بك الباجوري ولم أكن حاضرا فلما جئت قال لي: قد جاش في نفسي الشعر في غيبتك كأنني لا أقول الشعر الا في الحبس أو المرض:- يشير الى تلك القصيدة التي نظمها في السجن أيام الحوادث العراقية - وأنشدني الأيات فكتبها على هذا الوجه وقد وصلت الى الجرائد فنشرتها وذكرت البيت الثاني هكذا

ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم
ثم قال انه خطرت له ايات أخرى بعد ذلك وأنشدنيها فكتبها ورأيت قد ترك فيها ألف التأسيس كأنه نسيه أو أذهله عنه المرض وهذه الأيات في وصف المرشد التي طلبه في دعائه ذكر منها بيت واحد في بعض الجرائد الاسبوعية محرراً فأذكره صحيحاً وهو

ويخرج وحي الله للناس عارياً عن الرأي والتأويل يهدي ويلهم
هذا مجمل ما ينسج له المنار من سيرة هذا الامام الجليل وأخلاقه وما آثره وأما خلقه فقد كان ربة بادنما سكا قوي المفضل أسمر اللون براق العينين جهوري الصوت مهيب الطلعة عظيم الهامة قال مختار باشا الغازي لو وزن دماغ هذا الرجل لرجح بكل مخ عرف من عطاء الرجال فيما أظن واني لا آسف على عدم وزنه اذ لو تحقق ظني لكان من الفخر العظيم لنا ان كان أكبر دماغ عرف في البشر منا: وقد كان في شبابه من أفراد الناس في قوة المفضل حتى انه دفع حصانا جامحاً فأرجمه الى الورا حتى وقع على عقبه . ولكنه كان مع ذلك كثير الأسقام ومبداً ذلك تسمم صديدي أصابه فغاب عن الوجود أكثر من شهر لا يحس ولا يبني بل كان جسمه يتصبب عرقاً وبعد أن شفي منه كان يعاوده في كل سنة كما كان يعاود النبي صلى الله عليه وسلم سم أكلة خبير كل عام ، واعتبرته أمراض أخرى أضفت من قوته ولم تضعف من همته وعزمه وحزمه حتى لقي ربه تغمده الله برحمته ورضوانه . وأمكنه فسيح جناحه . ونفعا والمسلمين بل وسائر العالمين بسيرته وعلمه آمين